الفصل الأول

بين الصحف والألواح

الألواح.. وبدء الرسالة الموسوية

1 ـ تشكل الألواح أول إشارة لما أنزل على موسى وتم نسخه أو تمت كتابته، وقد ورد ذكر الألواح في القرآن الكريم على الشكل التالي:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف 150–151].

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف 154].

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف 145].

2 ـ وقد ورد ذكر لوحين في التوراة السامرية وكذلك في التوراة العبرانية:

فقالت التوراة السامرية: (وأعطى موسى عند فراغه من مخاطبته في جبل سينين لوحي الشواهد لوحي جوهر مكتوبين بقدرة الله) "الإصحاح 31 سفر الخروج الفقرة 18".

وتقول: (واتجه وتحدر موسى من الجبل ولوحا الشواهد بيده. لوحان مكتوبان من جانبيهما من هاهنا ومن هاهنا هما مكتوبان واللوحان صنعة الله هما. والخط خط الله هو. حُفرا على اللوحين) "32: 15 ـ 17 سفر الخروج".

ثم تقول: (فاشتد وجد موسى وألقى عن يديه اللوحين فكسرهما في أسفل الجبل) "32: 20".

ثم تقول: (وقال الله لموسى انحت لك لوحي جوهر كالأولين لأكتب على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرت) "34: 1 ـ 2 خروج".

ثم تقول: (وقال الله لموسى إنني كاتب لك الكلمات هذه فإني بسبب الكلمات هذه قطعت معك عهداً ومع إسرائيل وأقام هناك بحضرة الله أربعين نهاراً وأربعين ليلة طعاماً لم يأكل وماء لم يشرب وكتب على اللوحين كلمات العهد العشر كلمات) "34: 27 ـ 28".

3 ـ وقد ورد ذكر لوحين أيضاً في التوراة العبرانية:

فجاء في الإصحاح 34 من سفر الخروج: (ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما وتقول: ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله). وقد قالت قبل ذلك (فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده. لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا ومن هنا كانا مكتوبين. واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين).

وتقول: (فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسّرهما في أسفل الجبل) "32: 19".

وجاء فيها: (والآن إن غفرت خطيتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت فقال الرب لموسى من أخطأ إلي أمحوه من كتابي) "32: 24".

وتقول: (ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما).

وتقول: (وكان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب

ماء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر).

فهذا ما ورد في القرآن الكريم وفي التوراة السامرية وفي التوراة العبرانية عن قصة الألواح أو اللوحين اللذين كتبت فيهما وصايا الله سبحانه.

لماذا الألواح وليس اللوحين

ذكر القرآن ألواحاً ولم يذكر لوحين، وذكرت التوراة العبرانية لوحين من حجر والتوراة السامرية ذكرت لوحين من جوهر.

قد يكون الفرق بين ما أورده القرآن الكريم وما ورد في كتابي التوراة السامرية والعبرانية شكلياً حسب رأي بعض الدارسين والباحثين.

ولكن المدقق في الأقوال التوراتية يرى أن اللوحين كانا في يد موسى عندما نزل من الجبل، ثم عندما طرحهما كانا في يديه الاثنتين، وتتفق التوراة السامرية والعبرانية في ذلك وفي كلتا الحالتين فإن ما كتب في اللوحين هو حسب قول الكتابين السامرية والعبرانية عبارة عن كلمات وحسب العبرانية العشر كلمات.

وهذا يعني أن ما دوّن في اللوحين لم يكن سوى شيء قليل من التعاليم والتشريعات بينما نرى أن ما ورد في أسفار موسى الخمسة ما يحتاج لألواح كثيرة لأجل تدوينه، فهناك سفر العدد واللاويين والتثنية عدا عن قسم كبير من سفر الخروج. وربما قالوا: إن ما دوّن في اللوحين ليس ما هو موجود في أسفار موسى الخمسة، إنما أنزلت الأسفار تباعاً وليست دفعة واحدة. لكن حقيقة التشريع المباشر الذي راح موسى يلقيه على أتباعه يبين أن الألواح حوت هذه التعاليم والتشريعات، وقول التوراة (إن اللوحين كانا في يده) يبين أنهما لوحان صغيران يقدر الرجل على حملهما، هذا إذا افترضنا أنهما من حجر، وإذا كانا من خشب فقد يكونان أكبر قليلاً ولكن التوراة تقول: (الكلام كان محفوراً عليهما).

وعندما تقول: (على جانبيهما) فإن ذلك يعني أن اللوحين منقوشان على وجهين وليس على وجه واحد. بمعنى أن هناك أربعة وجوه نقش الكلام عليها. فهل تتسع هذه الوجوه لتدوين الأسفار الخاصة بموسى والتي فيها أساس التشريع الديني لبني إسرائيل؟

على كل حال فإن التوراة البالغ عدد أسفارها تسعة وثلاثين سفراً لم تنزل على

موسى ولذلك فإنها لم تدون في اللوحين أو الألواح. إنما الذي أنزل حسب كلام التوراة كلمات ووصايا.

أما ما جاء في القرآن الكريم فتوضحه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف 145].

فالألواح حوت مواعظ عن كل شيء مما يحتاجون إليه من أمر الدين والدنيا، وهذه المواعظ هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في طريق الدين والتفصيل هو تبيان للأحكام. والواقع أننا لو نظرنا إلى ما جاء في الأسفار الأربعة والثلاثين التي كتبت بعد أسفار موسى الخمسة لا تحتوي أحكاماً أو مواعظ. بل تحتوي تاريخاً دوّنه كتبة التوراة. وسنعود لهذا الأمر تفصيلاً في صفحات لاحقة حيث نناقش مضمون التشريع المنزل.

وعندما نعود إلى قول التوراة: إن موسى كسّر الألواح وأن الله أعاد كتابة التشريع الموسوي على لوحين جديدين ثم أعطاهما لموسى نرى أن موسى عليه السلام لن يقدم على كسر الألواح بعد أن مكث أربعين ليلة وأربعين نهاراً وهو في تربية روحية فريدة ولا يعقل أن يفرط بهما مهما كان السبب.

والحق أن قول القرآن الكريم: (وألقى الألواح) لا يعني أنها تكسرت تماماً، وتبين آية أخرى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ إن قول التوراة بأن الله عاد فكتبها على لوحين جديدين مرفوض والأصح ما جاء في أقوال المحدثين الذين نقلوا عن رسول الله ﷺ بعضاً مما قاله بهذا الشأن، فقالوا كانت سبعة ألواح فرفع منها ستة أسباع بسبب الكسر وبقي سبع واحد فرفع منها ما كان من أخبار الغيب وبقي منها من المواعظ والأحكام الحلال والحرام[1].

ويؤيد هذا القول أن معنى قوله: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي التي ألقاها على الأرض، ويعني قوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾. أن النسخ عبارة عن النقل والتحويل، فإذا نسخت كتاباً

(1) محمد طه الدرة، تفسير القرآن وبيانه وإعرابه ـ المجلد الخامس ص 86.

من كتاب حرفاً بحرف فقد نقلت ما في الأصل إلى الفرع.

وقال عطاء في ذلك: فيما بقي منها، وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها وذهب ستة أسباعها ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شيء.

وهذا القول يفسر ما جاء في سفر التكوين. فهذا السفر الذي ينسب إلى أسفار موسى دخل عليه التحريف والتخريف والتأليف؛ لأن الألواح التي تكسرت فُقد منها ما يتحدث عن الغيب والأمور الغيبية. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه أربعين يوماً ثم تسليمه اللوحين تم حسب قول التوراة العبرانية في الإصحاح 31 ـ 32 من سفر الخروج. وحسب السامرية في الإصحاح 34 وهذا يعني أن ما دُون في التوراة في سفر الخروج من الإصحاح الأول وحتى الإصحاح الثلاثين كتب قبل أن تنزل الألواح فكيف دُونت واعتبرت من أسفار موسى الخمسة التي أنزلت عليه؟ هل كتبها قبل أن تنزل الرسالة عليه أم أن هذه الإصحاحات ليست مما نزل على موسى لأن ليس بها لا أحكام ولا تشريع ولا حلال ولا حرام؟

وهذا يقودنا أيضاً إلى عدم الاقتناع بأن سفر التكوين كما دوّنه التوراتيون هو من أسفار موسى الخمسة لأنه كتب قبل أن تنزل الرسالة على موسى حسب الترتيب التوراتي.

ويبقى لدينا ثلاثة أسفار هي العدد والتثنية واللاويين وجزء أقل من النصف من سفر الخروج.

أما كيف احتوى سفر التكوين على قصص الخلق وآدم وأولاده وإبراهيم وإسحق وإسماعيل ويعقوب وأولاده والأسباط ويوسف. فإن ذلك جاء من خلال التناقل الشفهي بين بني إسرائيل، ولا ريب أن موسى وهارون عليهما السلام ظلا يعلّمان بني إسرائيل التشريع وقصص الكون والخلق والأنبياء الأولين حسبما علمهما إياها رب العالمين، وذلك من خلال استمرار الوحي والتعليم الإلهي لموسى، وليس شرطاً أن يكون ذلك مما كُتب في اللوحين أو الألواح.

وإذا تذكرنا بدء الوحي على سيدنا محمد ﷺ يحضرنا أنه عليه الصلاة والسلام تلقى أول ما تلقى قوله تعالى: ﴿اقرأ﴾ ثم تتتابع الآيات ويبدأ التدوين والحفظ منذ تلك اللحظة أي منذ تلقي الوحي أول مرة، بينما نرى أن التكوين وقسماً كبيراً من الخروج وضع حسب الترتيب التوراتي وليس حسب ما نزل على موسى في البداية.

صحف موسى

أشار القرآن الكريم في سورة الأعلى إلى صحف إبراهيم وموسى، وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تشير إلى ما حوته هذه الصحف، وقد أشكلت لدى كثير من المسلمين هذه المسألة، حتى بات بعضهم يقول: إن صحفاً أنزلت على موسى قبل أن يأتيه الله الكتاب، وبعضهم قال: إنها جزء من التوراة، واختلفت الآراء حول ذلك.

فهل صحف موسى ﷺ مختلفة عن الكتاب الذي أنزل عليه؟

وهل من علاقة بين هذه الصحف والتوراة؟

ما هي تعاليم هذه الصحف أو ما مضمونها؟

يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾ [الأعلى 14-19]. وأشار المفسرون المسلمون إلى أن السورة ـ الأعلى ـ نزلت كلها في صحف إبراهيم وموسى وأشار بعضهم إلى أنها نزلت بمعانيها وليس بلفظها.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي ذر ﷺ قال: قلت يارسول الله! كم أنزل الله من كتاب قال: مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل على شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

وتتمة الحديث تقول: قلت يا رسول الله! فما كانت صحف موسى قال: كانت عبراً كلها، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، ولمن أيقن بالموت ثم يضحك ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، ولمن أيقن بالقدر ثم ينصب. ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل قلت: يا رسول الله! هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى قال: يا أبا ذر! نعم: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾[1].

---

(1) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور ـ الجزء السادس ـ في تفسير سورة الأعلى.

فإذا استندنا إلى حديث رسول الله ﷺ فإننا ندرك أن هذه الصحف قد نزلت على موسى قبل التوراة، وهذا ما يتوافق مع القرآن الكريم؛ حيث إن القرآن الكريم أشار إلى تنزيل الكتاب على موسى خاصة، ثم أنزل التوراة الحقيقية.

لكن يبقى السؤال المطروح هو: ما علاقة الألواح بهذه الصحف، وهل الألواح تعني الصحف نفسها أم أن المضمون الذي حوته الألواح هو مضمون ما حوته الصحف فقط؟

الواقع أن هناك توافقاً تاماً بين ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعراف 145] وبين ما جاء في حديث رسول الله ﷺ في الحديث "كانت عبراً كلها" فالعبرة والموعظة تتجهان نحو تربية النفس على عدم حب الدنيا طالما أن الموت قريب وهذه هي طريقة الأنبياء جميعاً في تبليغ الدعوة.

ومع ذلك فإن هناك احتمالاً لابد من طرحه.

لقد أنزل الله سبحانه الكتاب على موسى في ألواح، وجرى ذلك بعد أن مكث موسى عليه السلام أربعين نهاراً يتعبد وهو صائم، ونزل عليه الكتاب بزمن محدد ومكان محدد وهذا الزمن وهذا المكان تشير إليهما آيات القرآن الكريم. لكن موسى عليه السلام بُلغ بالنبوة والدعوة قبل نزول الكتاب عليه، فذهب هو وأخوه هارون إلى فرعون وجادله، وقد بينت آيات القرآن الكريم مضمون هذا الجدال ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة 51-54]

فالآية أو الآيات تشير أولاً إلى أن موسى وهارون أوحي لهما ثم جاءت الآيات لتبين دعوة موسى للتوحيد من خلال حديثه عن رب العالمين وفضله على البشر.

والواقع أن الكتاب أنزل على موسى بعد خروج موسى من مصر. فالأمور التي أوحى بها الله لموسى ولأخيه كانت سابقة على تنزيل الكتاب.

من هنا يمكن لنا أن نفترض أن مضمون هـذا الوحـي هـو مضمـون صحف موسى، حيث كانت هذه الصحف تضـم وحيـاً لأمـور محـددة فيهـا موعظـة ودعـوة إلى التوحيـد وليس فيها تشريع. وطبيعي أن التشريع نزل على موسى بعد أن تخلص من حكم فرعون وظلمه وبعد أن استقر بنو إسرائيل في سيناء وهم آنذاك يحتاجون لهذا التشريع.

فالصحف السابقة على الكتاب وليس فيها تشريع إنما هي مواعظ وعبر، وقد تكـون ضمـت إلى الكتـاب بعـد أن تم نسـخها وتدوينهـا وربمـا حذفهـا التحريفيـون اليهـود عنـد التدوين.

الكتاب والتوراة.. فصل في أسبقية التنزيل

تعترضنا في هذا الفصل عدة مسائل قد تبدو مستعصية متداخلة تصعب الإجابة عليها فالقرآن الكريم أورد كلمة الكتاب المرتبطة بموسى متجاورة مرتبطة بهذا النبي، وأورد كلمة التوراة غير مرتبطة به، ويتضح من خلال السياق أن الله سبحانه خص موسى بكتاب ولم يخصه بالتوراة مع أن الآيات الكريمة أكدت على تنزيل الكتاب وتنزيل التوراة.

فهل الكتاب هو التوراة أم أنه غيرها؟ أم أن التوراة مشتملة على كتاب موسى عليه السلام أم أن التوراة أنزلت على عدد من الأنبياء وليس موسى وحده؟ هل كتاب موسى هي الأسفار الخمسة التي وردت متتابعة في كتاب العهد القديم منذ السفر الأول حتى الخامس؟

وهل عدم اعتراف السامريين ببقية أسفار العهد القديم نابع من كونها لا تخص النبي موسى عليه السلام ولذلك جاءت توراتهم مقتصرة على أسفار موسى الخمسة؟ وإذا كانت التوراة تورد في آخر سفر من الأسفار الخمسة الأولى أن موسى عليه السلام قد مات ولم يعرف بنو إسرائيل نبياً مثله، إذاً على من نزلت بقية الأسفار وعددها أربعة وثلاثون سفراً؟

لقد درج المفسرون والعلماء المسلمون على جعل التوراة كتاب موسى عليه السلام على اعتبار أن التوراة أعم وأشمل، وأكد جميعهم على ما جرى من تحريف في التوراة. وقد تنبه لذلك ابن حزم الأندلسي في كتابه المهم (الفصل بين الملل والأهواء والنحل) وكذلك ابن القيم الجوزية في كتابه المهم (دليل الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى). ومع كل هذا التنبه بقيت أمور في غاية الأهمية والخطورة لم يتناولوها على اعتبار أن هدفهم الأساسي إيضاح ما جرى من تحريف في التوراة، ومن ثم إيضاح أساليب الرد المنطقي المعتمد على الحجج الدامغة على كتبة التوراة ومن تبع ذلك الضلال والتحريف ممن يسمون اليوم باليهود.

وعند العودة إلى الأسئلة التي طرحناها في البداية نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع آيات القرآن الكريم التي خصصها الله سبحانه لذكر الكتاب وذكر التوراة، في أي سياق جاءت وما مضمون ما في الكتاب والتوراة حسب ما أورده القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ

ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة 51-54] .

فقد وردت كلمة الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة 53] وقد جاء في أول الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ وهذا يدل على أن الله سبحانه آتى موسى الكتاب في سياق حدث محدد. وهذا الحدث هو مكوث موسى أربعين ليلة تمهيداً لتلقي الرسالة، وفي غيابه ارتد بنو إسرائيل فعبدوا العجل. ثم يأتي قوله: (عفونا عنكم) ثم يأتي قوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾. ثم يأتي عتاب موسى لقومه بسبب اتخاذهم العجل والطلب منهم الاستغفار.

وهذا السياق يعيدنا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف 150].

وإلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف 154].

فسياق الآيات الكريمة يدلنا على أن الحدث واحد. ولعل أهم ما ترشدنا إليه الآيات أن الألواح هي المادة التي كتب عليها الكتاب، وبمعنى آخر لقد حوت الألواح الكتاب الذي آتاه الله موسى. وهذا يعني أيضاً أن الكتاب ليس كتاباً مسطوراً بالمعنى الحرفي للكلمة، إنما هو التعاليم والأحكام التي فرضها رب العالمين على موسى وقومه، وقد جاءت مسطورة على الألواح ثم بثها موسى عليه السلام لقومه، وطالما أن الآيات الكريمة أوضحت أن الله سبحانه كتب على الألواح تلك التعاليم والمواعظ والأحكام. والواقع يقول لنا: إن موسى عليه السلام لم يعد بحاجة إلى الألواح بعد أن نسخت التعاليم والأحكام بعد أن حفظها موسى، والسياق القرآني يشير إلى وجود كتاب موسى وإلى توراة أنزلت ولم يعد هناك ذكر للألواح لأن الحديث الذي حوى تنزيل التعاليم على الألواح لم يبق

بل تلاحقت السنون والأيام وظل موسى يدعو قومه ويعلمهم ما يوحى إليه من ربه ومكث فيهم عشرات السنين وهو في حال الدعوة لم ينقطع.

ومما يدل على أن قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني الكلام الإلهي المنزل من السماء وليس الكتاب المادي تكرار قوله تعالى في كثير من مواضع القرآن الكريم، وجميعها يأتي في سياق التأكيد على أن الله سبحانه كلف موسى برسالة سماوية وكتاب فيه من التعاليم والأحكام ما يصلح لحياة بني إسرائيل العقيدية والاجتماعية.

لماذا أردفت الآية الكريمة كلمة الفرقان بعد الكتاب؟

قال المفسرون: إن معنى الفرقان هنا هو الكتاب الفارق بين الحق والباطل فهو من الترادف. وقيل: المراد بالفرقان المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد موسى مثل العصا واليد وغير ذلك من المعجزات.

فإذا تنبهنا إلى كلمة فرقان وورودها في القرآن الكريم وجدنا أنها قد وردت في عدة مواضع، وعلى وجه التحديد وردت في سبعة مواضع.

منها ما يخص المسلمين تحديداً في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة 185].

وقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران 3-4]

وقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان 1].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ﴾ [الأنفال 29].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [الأنفال 41].

وقد خص القرآن الكريم كلمة الفرقان لموسى في موقعين:

الموقع الأول في قوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ [البقرة 53].

والموقع الثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾ [الأنبياء 48].

ومن خلال سياق الآيات الكريمة ندرك أن الفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل وسمي القرآن فرقاناً لأنه فرق بين الحق والباطل وليكون نذيراً للعالمين.

أما قوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ إذا اتقيتم يدل على أن الله سبحانه يمنح المتقين فهماً عميقاً يميزون به الحق من الباطل. وأعتقد أن المقصود بكلمة فرقان في الآيتين الخاصتين بموسى تعني أن الله سبحانه آتى موسى فهماً نبوياً خاصاً ليميز به بين الحق والباطل. فيكون الفهم إضافة على الكتاب الذي أنزله الله على موسى، ولا تعني كلمة فرقان أنه شيء مكتوب مختلف عن الكتاب، إنما هو فهم أوحي به إلى موسى إضافة لكتابه.

الكتاب بعد موسى بين أيدي بني إسرائيل

جاء في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية وهو آخر أسفار موسى الخمسة الأولى (فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكلّ عينه ولا ذهبت نضارته فبكى بنو إسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوماً) "تثنية 34: 5 ـ 8".

وتقول: (ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه في جميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعلمها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل) "تثنية 34: 10 ـ 12".

إن إعلان التوراة أن موسى مات ولم يقم في بني إسرائيل نبي مثله يعني أن ما تمتع به لم يتمتع به أحد من بعده. ويعني أيضاً أن الوحي لموسى قد انقطع، أو أن كلام الله سبحانه قد توقف. وهذا يعني أن ما أنزل على موسى وما آتاه الله من كتاب اكتمل عند موته. وهذا

يعني أن ما أنزل على موسى حسب نص التوراة هو الأسفار الخمسة الأولى. والواقع أن ما أنزل على موسى بدأ في سفر الخروج وانتهى بسفر التثنية، لأن ذهاب موسى وتلقيه كلمات ربه تم في ما بعد الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج، وقد ذكرنا ذلك سابقاً.

وبعد ذلك فقد امتلك بنو إسرائيل التعاليم التي بثها كتاب موسى وعرفوها جميعهم لأن موسى مكث بينهم منذ بدء الخروج وحتى موته أكثر من أربعين عاماً، وقد يصل مكوثه إلى ثمانين عاماً إذا تذكرنا أن بني إسرائيل ظلوا في التيه أربعين سنة وهذا التيه فرض الله عليهم بعد مكوثهم في الصحراء مدة زمنية طويلة قد تصل أيضاً إلى أربعين سنة أخرى.

أما السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما مصير كتاب موسى بعد موته؟ هل ظل بشكل مكتوب أو منسوخ؟ هل بقيت بقية الألواح، واحتفظوا بها هل انحرفوا عنها أو زادوا أو حذفوا؟

تورد التوراة أن موسى عليه السلام أُمر أن يضع ما يسمى تابوت العهد. فصنعه رجاله من الأحبار والكهنة ورؤساء العشائر. ثم تقول التوراة: (وأخذ الشهادة وجعلها في التابوت) "خروج 40: 20".

ويورد قاموس الكتاب المقدس: (وكان في التابوت الوعاء الذي يحتوي على المن وعصا هارون التي أفرخت ولوحا العهد وكان عليهما وصايا الله العشر المكتوبة بإصبع الله ثم وضع بجانبه كتاب التوراة. كما ورد في سفر التثنية ومن ثم يسمى التابوت أحياناً تابوت الشهادة).

ويتابع القاموس قوله: ولم يكن وعاء المن وعصا هارون في ملك سليمان وذكر ذلك في سفر الملوك الأول الإصحاح الثامن الفقرة 9.

نستنتج من هذا الذي ورد في التوراة ما يلي:

1 ـ تابوت الرب حوى وعاء يحتوي على المن وعصا هارون، ولوحا العهد المكتوب عليهما الوصايا العشر المكتوبة بإصبع الله.

2 ـ ثم وضع بجانبه كتاب التوراة.

3 ـ في عهد الملك سليمان كان قد فقد من التابوت وعاء المن وعصا هارون.

ويستشف من هذا الكلام أن لوحي الشهادة قد كتبت عليهما الوصايا العشر. ولوحا الشهادة غير التوراة. حيث قالت التوراة ذلك.

وهذا يعني أن ما أنزل في اللوحين هو غير ما كتب في التوراة إذ أن اللوحين احتويا على الوصايا العشر فحسب، وأن ما أنزل على موسى عند لقاء ربه في سيناء هو تلك الوصايا وليس التوراة.

ومع ذلك فإن لآيات القرآن الكريم القول الفصل في ذلك.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود 110].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ [فصلت 45].

والمعنى واضح إذ يقول لنا: إننا آتينا موسى الكتاب فآمن به قوم وعملوا بتعاليمه وكفر به قوم حيث حرفوا به وبدلوا وغيروا ولم يعملوا بتعاليمه، ولولا كلمة الله التي سبقت وهو تعذيب المحرفين يوم القيامة لقضي بينهم بإنزال ما يستحقونه من عذاب.

ومن خلال ما قالته التوراة نعرف أن لوحين وعصا ووعاء وتوراة وضعت في التابوت جميعها وأُغلق عليها ولم يعد أحد يراها.

فإذا نظرنا في سفر يشوع وهو السفر اللاحق مباشرة لسفر التثنية أي السفر الخامس من أسفار موسى نرى أن يوشع يأمر أتباعه بالغزو والقتل والاحتلال، وجميع ما جاء في هذا السفر يشكل ملحمة دموية يقودها يشوع وأتباعه ولا ندري أهي أحداث وقعت أم أنها اختراع اخترعها مدون التوراة أيام السبي البابلي؟

المهم في الأمر أن الله سبحانه قال في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾. وهذا يعني أن اختلافاً وقع بين طرفين أو أطراف من أتباع موسى حول هذا الكتاب. وهذا الاختلاف قد يكون حول التعاليم وقد يكون حول طبيعة الكتاب وما فيه من أجزاء أو وصايا.

وهذا الاختلاف يؤكد أن كتاب موسى تعرض للتفسير المخالف لمضمونه ولما أراده الله سبحانه.

والواقع أن تابوت العهد نفسه تعرض للنقل عدة مرات ثم تعرض للخطف من قبل أعداء بني إسرائيل ثم أعيد وعندما أراد سليمان فتحه وجده ناقصاً. بمعنى أن الأشياء التي حفظت فيه كانت قد تعرضت للسرقة نهائياً. وحسب نص التوراة أن العصا ووعاء المن لم يكونا فيه حين فتحه سليمان. ويوحي كلام التوراة أن ما بقي فيه هو كتاب التوراة واللوحان اللذان كتب عليهما الله الوصايا العشر. وقد جاء في نص من سفر الملوك الأول: (لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر) "8: 10" وهذا يعني أيضاً أن التوراة كانت قد فقدت مع العصا ووعاء المن. وبمعنى آخر حسب قول التوراة لم يبق إلا كتاب موسى المدون على اللوحين ولا ندري هل بقي على حاله لأن الزمن بين موسى وسليمان طويل جداً ولأن اللغة التي أنزل الله بها كتاب موسى ليست هي اللغة التي كانت يتحدث بها بنو إسرائيل زمن سليمان.

وقد تكرر ورود كلمة كتاب مرتبطة بالنبي موسى عليه السلام في عدد كبير من المواقع، وقد بين الله سبحانه وتعالى مضمون ما حوى هذا الكتاب من خلال كلمات جامعة شاملة فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص 43].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ [البقرة 87].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأنعام 154]

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ [الإسراء 2].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [هود 17].

وقال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [الأحقاف 12].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون 49].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝﴾ [الفرقان 35].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝﴾ [السجدة 23].

فهذه الآيات تبين أن الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام هو كتاب تشريع أو هو أول كتاب تشريع ديني للناس. فبعدما أهلك الله القرون الأولى كفرعون وعاد وثمود وأقوام أخرى كقوم شعيب أنزل الله الكتاب على موسى ليكون هدى ورحمة. وورد في الحديث النبوي الشريف أنه بعد نزول كتاب موسى لم يهلك الله قوماً قط. وكأن هذا الكتاب جاء ليكون الشاهد على بني إسرائيل فيما إذا صلحوا أو فسدوا. وتوضح الآية الثانية أن الرسل تتابع طريقها بعد أن أنزل الله كتاب موسى، ليكون هذا الكتاب المادة الأساسية التي يسير على نهجها أنبياء بني إسرائيل، ومن الأنبياء الذين تتابعوا بعد موسى داود وسليمان وعيسى عليهم السلام. وتوضح آيتان أن كتاب موسى آتاه الله لنبيه ليكون إماماً للناس وقدوة وهدى ورحمة، لا ليكون موجهاً للحروب والقتل والغدر وتدمير المدن والقرى أو حرقها، كما فعل بنو إسرائيل في سفر يشوع وغيره من الأسفار.

آتينا.. وأنزلنا

قبل أن ندخل في دراسة مضمون كتاب موسى الذي آتاه الله سبحانه وقبل أن نعمد إلى المقارنة بين مضمونه ومضمون التوراة العبرانية والسامرية يلفت نظرنا لفظ التوراة الذي ورد في تسعة عشر موضعاً من القرآن الكريم.

وسنتعرض لدراسة هذه المواضع جميعها وعلاقتها بالسياق العام للآيات قبلها وبعدها لكننا هنا نتوقف عند بعض الآيات منها التي أوردت قوله تعالى أنزلنا أو ما اشتق منها.

1 - يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران 65].

2 - يقول تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران 93].

3 - يقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة 44].

4 - ويقول تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾ [آل عمران 3].

ومنذ البداية يلفت نظرنا ارتباط الفعل (وآتينا) بكتاب موسى عليه السلام وارتباط ﴿ أَنزَلۡنَا ﴾ ومشتقاتها بالتوراة.

فالذي نفهمه من السياق أن الكتاب أتاه الله موسى وخصصه به لكن التوراة لم تخصص لموسى كلها؛ بمعنى أن الكتاب الذي أتاه الله موسى هو جزء أساسي من التوراة ولكن التوراة أشمل وأكبر من الكتاب وهي تخص النبيين الذين أسلموا ليحكموا من خلالها للذين هادوا.

وطالما أن التوراة أنزلت بعد موسى وإبراهيم وإسحق والأسباط فإن قوله تعالى: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾ تخص الأنبياء الذين أتوا على مراحل بعد موسى عليه السلام وهؤلاء، وهم داود وسليمان وعيسى وأنبياء آخرون كلفهم الله بهداية بني إسرائيل وهم أنبياء وليسوا رسلاً، بمعنى أنهم لم يجمعوا بين النبوة والرسالة.

وعندما ندقق في الفعل ﴿ءَاتَيْنَا﴾ واقترانه بموسى عليه السلام نرى أن الكتاب الذي خُص به موسى هو التعاليم والأحكام التي كُلف موسى بتنفيذها؛ بمعنى أن هذا الكتاب هو ما كان يحتاج لتعاليمه بنو إسرائيل وليس غيره، وما في التوراة التي هي أشمل من الكتاب لم يكن بنو إسرائيل مستعدين لتقبله في عصر موسى. والناظر في تعاليم وأحكام أسفار موسى يرى أن التشريعات التي حواها كانت تناسب الظرف الجغرافي والتاريخي والنفسي الذي عاشه بنو إسرائيل.

ولو عدنا إلى الآيات الكريمة التي جاءت على ذكر الألواح وكتاب موسى لرأينا أن الله سبحانه منح موسى الكتاب دفعة واحدة، حيث كُتبت الأحكام والمواعظ في الألواح وتسلمها موسى وحملها ليشرحها لبني إسرائيل؛ بمعنى أنها لم تنزل مفرقة على فترات كما أنزل القرآن الكريم.

لقد عرفنا من خلال سياق آيات القرآن الكريم أن موسى عليه السلام عندما كُلف بالذهاب إلى فرعون لم يكن قد آتاه الله الكتاب. وآتاه الله الكتاب بعد أن هرب بنو إسرائيل من ظلم فرعون واستقروا في سيناء.

وتقول التوراة إن موسى عاش مئة وعشرين سنة. وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد كبير.

وكلف موسى بالرسالة وآتاه الله الكتاب في سيناء. ولكن موسى عليه السلام راح يطبق تعاليم الكتاب على بني إسرائيل ويرشدهم الدين، وبين امتلاك موسى الكتاب وموته وانقضاء مهمته فترة زمنية طويلة. يدل عليها قول الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة 21] إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة 26].

فما بين إتيان موسى الكتاب وهذه الحادثة فترة زمنية طويلة. وهذه الفترة لم ينقطع فيها الوحي عن موسى وكذلك تكليم الله له سبحانه. وما يكلمه الله به أو يوحي إليه ليس كلام عبث أو أي كلام، إنما هو استمرار للتعاليم ومعالجة الظروف المستجدة وما كلمه الله به وما أوحي إليه ظل ساري المفعول حتى وفاة موسى.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن يقول: هل دوّن ما أنزل على موسى في هذه الفترة؟ هل يشكل ما أنزل عليه التوراة أو جزءاً منها؟ وطالما أن الوحي لم ينقطع عنه ـ وهذا طبيعي بالنسبة للأنبياء الرسل ـ فلماذا آتاه الله الكتاب مدوناً على ألواح بينما ما أنزل عليه بعد الكتاب لم يدوّن ولم يكتب من قبل الله سبحانه وتعالى؟

ويمكن لنا أن نفترض أن ما أوحي إلى موسى بعد الكتاب يشكل مادة شفهية كان يلقنها موسى لقومه يوماً بيوم حتى انقضاء حياته، لقد أنزلها الله سبحانه على فترات فشكلت الجزء الأكبر من كتاب التوراة، ولكن الكتاب الذي آتاه الله موسى في الألواح ليس هو بالتحديد كتاب التوراة. وليس له علاقة بما أنزله الله سبحانه على موسى في فترة ما بعد الكتاب.

وهنا لابد أن نتوقف عند بعض الآيات لتضح أمامنا أبعاد الإتيان والتنزيل.

يقول تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة 46].

فقد آتى الله سبحانه عيسى الإنجيل ليكون خاصاً به مقترناً برسالته كما آتى موسى عليه السلام الكتاب ليكون خاصاً به مقترناً برسالته. ولم يخص موسى بالتوراة لأنها أشمل من الكتاب وأوسع ولأنها أنزلت بعده.

وإذا كان بنو إسرائيل قد اختلفوا في الكتاب المدون الذي أنزل على موسى عليه السلام فكيف حالهم مع ما أنزل على موسى شفاهية ولم يدوّن؟

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [فصلت 45].

فما دوّن وكان مكتوباً في زمن موسى عليه السلام اختلف فيه بنو إسرائيل وفي أحكامه فما بالنا بالذي فعلوه من تحريف وتلفيق فيما أنزل على موسى شفاهية ولم يدوّن؟

ولننظر إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آل عمران 84].

فقد خصت المسلمين أنزل علينا ـ وخصت بالإنزال إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، والذي أنزل عليهم هو وحي يرسخ لديهم العقيدة التوحيدية الشاملة، وما أنزل عليهم ليس كتاباً مدوناً إنما هو وحي شفاهي.

بينما خص موسى وعيسى بالإتيان وكذلك النبيين من بعد موسى والمقصود هنا الأنبياء الذين أتوا بعده، وهؤلاء الأنبياء أوتوا ما أوتي موسى، وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء 163] ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ [سبأ 10] وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ [النمل 15].

كيف نفهم مدلول التوراة في سياق آيات القرآن الكريم؟

ورد ذكر كلمة التوراة في تسعة عشر موضعاً من القرآن الكريم وكل موضع ارتبط بسياق معين وبقرائن خاصة.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران 65].

فقوله تعالى فضح لمزاعم أهل الكتاب وادعائهم بأن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً فالتوراة أنزلت بعد إبراهيم بمدة زمنية طويلة فما علاقته بالتوراة وما علاقته بأهل الكتاب.

ويقول تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران 93].

وفي هذا السياق أيضاً تحدّ لأهل الكتاب لأنهم ادعوا أن يعقوب حرم أشياء على بني إسرائيل، والواقع أن كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه فلمَ يحرمون الأشياء التي كانت حلاً لهم، فالتحريم وُجد في التوراة التي أنزلت بعد يعقوب وليس ليعقوب دخل بها.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة 66].

وهذا يعني أن أصحاب الكتاب لم يحكموا بما أنزل الله ولم يقيموا الأحكام التي وجدت في التوراة والإنجيل. ولو أقاموها لفاضت نعم الله عليهم.

ويقول تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة 68].

فالخطاب لرسول الله ﷺ، ويعني: قل لهم إنكم لستم على شيء من الدين حتى

تقيموا أحكام التوراة والإنجيل وما أنزله الله عليكم. وطالما أنهم كذلك فلن يؤمنوا بما أنزل على رسول الله ﷺ. بل إن ما أنزل إليك سوف يزيدهم طغياناً وكفراً لأنهم لا يريدون أن يقيموا أي حكم من أحكام الله. وهناك مواضع أخرى ذكرت التوراة فيها لتدل على أن من حمّلوا التوراة ولم يقوموا بتنفيذ أحكامها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ولا يفقه ما يحمل على ظهره.

ومنها أيضاً ما يتحدى به القرآن بني إسرائيل في أمور أخرى كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف 157].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة 43].

لكن الذي يستوقفنا هو ورود كلمة التوراة في آيات أخرى لها مدلولات خاصة في سياق ما نتحدث عنه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة 44].

فالله سبحانه أنزل التوراة فيها هدى ونور يحكم بها أنبياء بني إسرائيل داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار من خلال ما حفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء.

فموسى عليه السلام وكذلك هارون طبقا أحكام الكتاب الذي آتاه الله لموسى وفي هذا الكتاب أحكام وتشريعات صلحت في تلك الفترة الزمنية التي عاشها بنو إسرائيل، ولما تغير الظرف أصبح من الطبيعي أن تتوسع الأحكام. وما أُنزل على موسى من تعاليم بعد أن آتاه الله الكتاب حُفظ شفهياً وراح يطبقه ربانيو بني إسرائيل وأحبارهم إلى أن ظهر

الأنبياء اللاحقون كداود وسليمان وإلياس. فراحوا يطبقون أحكام الكتاب الأول الذي خُص به موسى وأحكام ما بعد الكتاب. ولا شك أن هؤلاء الأنبياء رسل أيضاً عليهم تبليغ الرسالة، وقد أوحى الله لهم بأمور أخرى كان لها علاقة مباشرة بأحكام الكتاب وأحكام ما بعد الكتاب، وهي التي شكلت فيما بعد كتاب التوراة العبرانية الذي كتبه عزرا أيام السبي البابلي. مضافاً إليه ما أسعفه به خياله وما أمده به شفاهيةً أحبار بني إسرائيل وزعماؤهم الدينيون.

وكلمة التوراة هنا يقصد بها ما يسمى إطلاق الكل على الجزء. والواقع أن الآية الكريمة تقول: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة 45].

وهذه الأحكام موجودة في كتاب موسى. ولكن القرآن الكريم قال كتبنا فيها أي في التوراة، وهنا يتضح ما قلناه وهو إطلاق الكل على الجزء. وقد عُرفت التوراة فيما بعد موسى ولم يبق الكتاب وحده هو مصدر التشريع لبني إسرائيل، إنما ضُم إليه ما أوحى به الله للأنبياء بعد موسى.

وهذا ما يقودنا إلى آيات أخرى توضح الأمر بشكل جلي.

❖ يقول تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة: 46].

❖ ويقول تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران 50]

❖ ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف 6]

فعيسى عليه السلام كان آخر أنبياء بني إسرائيل، بعثه الله سبحانه ليقيم حكم الدين على اليهود، ولكن عيسى عليه السلام بُعث وكان اليهود قد امتلكوا ما يسمى كتاب التوراة مدوّنا. لأن الفرق الزمني بين تدوين التوراة ومبعث عيسى لا يقل عن خمسمائة عام. والتوراة التي أضحت بأيديهم هي التوراة المحرفة وليست التوراة التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين لعيسى.

والآيات الثلاث السابقة جاءت على ذكر التوراة ولكنها كررت قوله تعالى: ﴿مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ فالتوراة التي كان يعرفها عيسى عليه السلام غير التوراة التي كان قد كتبها أحبار اليهود. ولذلك جاء الحرف ﴿منَ﴾ ليؤكد أن عيسى يعرف مضمون الكتاب الذي أنزل على موسى ويعرف محتوى مَا أنزل بعد موسى من تعاليم أنزلت وسُميت التوراة، فمصدقاً لما بين يديه من التوراة تؤكد التبعيض ولا تؤكد الكل لأن ما يملكه اليهود من كتاب التوراة ليس كله صحيحاً إنما هو محرف؛ فما يعرفه عيسى هو ما يؤمن به، وهو ما علمه إياه الله من خلال الوحي، فهو مهيمن على ما جاء فيه ولا يستطيع اليهود إنكاره لأنهم يدركون أنه الصحيح وما دونوه هو المحرف.

ومضمون الآيات يوضح لنا طبيعة ما حواه إنجيل عيسى عليه السلام، فهو وكتاب موسى عليه السلام من مصدر واحد وغايتهما أيضاً واحدة. ففيهما هدى ونور ورحمة ولا خلاف بينهما قطعاً، لكن الخلاف الكبير والتناقض الصارخ يقع بين حقيقة ما أُنزل والتحريف الذي نفذه أحبار بني إسرائيل.

بين كتاب وكتاب

يلفت نظرنا ورود كلمة كتاب في عدد من الآيات القرآنية الكريمة وهي لا تعني التوراة أو كتاب موسى ولا تعني الإنجيل ولا تعني القرآن الكريم. إذاً ما معنى هذا الكتاب وعلى ماذا يدل؟

يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة 110].

ويقول تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران 48].

ففي الآيتين وردت كلمة الحكمة، والكتاب، والتوراة، والإنجيل.

فالكتاب هنا ليس التوراة وليس الإنجيل. فما هو هذا الكتاب؟

الواقع أننا لا نستطيع معرفة المقصود بالكتاب دون الرجوع إلى آيات أخرى وردت فيها كلمة الكتاب ولم تعنِ أي كتاب معروف كالقرآن والتوراة والإنجيل.

يقول تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة 213].

ويقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد 25].

ففي الآيتين السابقتين يرد قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وقوله (وأنزلنا معهم الكتاب) فالكتاب الذي نزله الله سبحانه خص الأنبياء جميعاً. والكتاب الذي علمه الله سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام ليس الإنجيل وليس التوراة كما نصت عليه الآيتان السابقتان فهذا الكتاب خاص بالله سبحانه أوحى به للأنبياء المرسلين دون البشر، ولا

يعلم أسراره إلا هم وبعض من خصهم الله بعلمه وهم قليل ونادرون.

يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل 40].

ويتضح من ذلك أن الكتاب المقصود هنا ليس من الكتب المنزلة المعروفة، أي كتاب موسى والتوراة والإنجيل والقرآن الكريم.

وما في هذا الكتاب ليس بالضرورة أن يكون موجوداً في الكتب المنزلة. فما يوحيه الله سبحانه للأنبياء أعم وأشمل. وهذا الكتاب هو في اللوح المحفوظ الخاص لله سبحانه وتعالى بمنح تعاليمه للأنبياء كي ينفذوا الرسالة ويؤدونها.

وقد توقف بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝﴾ [الإسراء 4]. فقالوا: الكتاب هنا هو التوراة.

والواقع أن ما توحي به الآية أن الكتاب ليس التوراة إنما هو الكتاب الذي خصه الله سبحانه لنفسه إذ أن قوله قضينا يعني أننا حكمنا في علمنا المسبق أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض ويعلون علواً كبيراً.

والعلم الغيبي خاص لله سبحانه وهو في كتاب اللوح المحفوظ الخاص أيضاً لله تعالى. يقول تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝﴾ [طه 52].

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [الحج 70]

وهناك عشرات الآيات التي تشير إلى هذا الكتاب الخاص بعلم الله وليس له علاقة بأي كتاب منزل.